قراءة في كتاب أصول التربية الإسلامية *

الأستاذ قاسم عمر أبو الخير**

يشير المؤلف في مقدمة كتابه الذي جاء تلبية لرغبة المعهد العالمي للفكر الإسلامي في وضع مرجع جامعي في الموضوع .

أشار المؤلف إلى أهمية المفاهيم في أي مجال معرفي خاصة وأن المجال المطروق – كما يقول المؤلف - مازال في طور الحداثة ويكتنفه غموض وتباين في الرؤى والمرجعيات .مؤكداً على أن المرجعية الفكرية والعقيدية التي يتحدث عنها الكتاب يمكن الاستناد عليها " المرجعية الفكرية الإسلامية" لما لها من صدق وصراحة ودعوة للآخرين لذات التناول وأنها تتمثل في: كيفية التعامل مع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تربوياً لاستنباط الموجهات التربوية في تنشئة الشخصية المسلمة ، والتعامل مع التاريخ "الماضي" بهدف التناول النقدي للإعانة في فهم الحاضر والإرشاد في بناء المستقبل – بلا تقديس – بدل الرفض المطلق . مع استهداف - بالدرجة الأساس - الإرث التربوي الإسلامي وما يتصل بعموم الحركة الحضارية الإسلامية والمشكلات والتحديات التي تواجه الأمة وعلاقة ذلك كله بالواقع .

البنية المفاهيمية

استهل المؤلف هذا الجزء بالإقرار بأن لكل مجال معرفي جملة من المفاهيم والمصطلحات يتفق عليها العاملون في ذاك المجال لتيسير سبل البحث والكتابة فيه ، وقد تحقق ذلك في مجال العلوم الطبيعية منذ فترة طويلة لكنه تأخر في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية ، ويسوء الأمر في مجال العلوم التربوية بسبب تباين النظر إلى التربية و اعتمادها بصورة كبيرة على علوم ومجالات معرفية أخرى في مصطلحاتها ومناهج البحث في موضوعاتها وأن كثيراً من مفاهيمها ومصطلحاتها إما مترجمة أو منقولة من ثقافات مغايرة أو وليدة لسياقات حضارية مختلفة بسبب اختلافات وتباينات المشتغلين بها .

وقد عالج الكتاب معاني التربية والتعليم والجدل الدائر حولهما وما يقترب منهما أو يرادفهما أو يشتبك معهما من مصطلحات .

أما فيما يتعلق بالتوجيه الإسلامي للتربية ، يرى أن انصراف معظم بلدان العالم الإسلامي عن تطبيق شرع الله أصابها بالوهن والضعف وأصاب النظم التربوية فيها ما أصاب الأمة نفسها من تمزق واضح تمثل في التخلف والجهل والأمية والخمول والتقليد والوقوع تحت نير المستعمر والإتكاء على أسس قومية وإقليمية ضيقة في المناداة بالاستقلال ، فظهر التفرق والانفصال ونشوء نظم تعليمية تلقن القيم والمفاهيم بالأساليب الغربية فنتج عنهما خريجون يجهلون أمور دينهم وتراثهم الإسلامي

وتثير تداعيات الحادي عشر من سبتمبر وما أدت إليه من حملة عالمية ترفع شعار مكافحة الإرهاب الأمر الذي وفر مزيداً من الفرص لشن الحملات العدائية على كل ما هو إسلامي . وللنهوض من آثار الأزمة الفكرية التي تعانيها الأمة لايرى المؤلف مناصاً من ضرورة ووجوب نفرة مفكري الأمة وعلمائها للعكوف على صياغة الإسلام كبديل حضاري للنموذج الغربي الوافد ، والطريق المأمول في تحقيق ذلك هو النهج الإسلامي . وفي تعريفه لأصول التربية الإسلامية مهد لها بحديث لمعنى أصول التربية عامة فذكر أن التربية تستعين بـ وتستند إلى أصول مستمدة من العلوم والدراسات التي تفيد في فهم جوانبها المختلفة كعلوم الدين والنفس والاجتماع والتاريخ والسياسة والاقتصاد والفلسفة والحياة وغيرها ، منتهياً إلى تعريف لأصول التربية الإسلامية بأنها مجموعة من الأقيسة المنطقية المبنية على عدد من الحقائق العلمية والاجتماعية وفق تصور الإسلام للإنسان والكون والحياة "النموذج المعرفي الإسلامي" .

وقد أشار المؤلف في استقرائه لبعض الكتابات في أصول التربية الإسلامية إلى اختلافات في المفاهيم – رغم أن هذه الأصول هي الأصول الإسلامية – وذلك بسبب اختلاف اعتبارات التعامل مع تلك الأصول بين القوى الثقافية المؤثرة ومجموعة المقومات والمبادئ والتوجهات المستمدة من الإسلام ، مؤكداً في تعريفه لمفهوم الأصول على أنه المصدر " الكتاب والسنة " والشريعة – التي توضح تصور الإسلام للقضايا الفكرية وما عداهما فهو موجهات ومؤشرات مثل الخبرة الحضارية والموروث التربوي .

في سياق العلاقة بين التربية والدين أكد الكاتب أهمية السلوك وارتباطه بالواقع " الدين المعاملة " وهو ما يعلي من قيمة الدين و يعزز العلاقة الوثيقة بين التربية والدين ، وأن التربية فريضة باعتبارها وسيلة الدين في التحول من الناحية العقدية القيمية إلى السلوكية مؤكداً ذلك بإيراد بعض الآيات والأحاديث التي تحث وتحرض على التعلم ، وأن طلب العلم مقرون بالتطبيق و الاهتمام بتعلم القرآن والسنة وضرورة اقتران ذلك بالممارسة العملية ، مع الإشارة إلى ضرورة التربية في تأكيد القسمات المشتركة للأمة الإسلامية وأنها عامل توحيد لا عامل تفريق . كما أكد على خطورة التربية وضرورتها في تحقيق الضبط الاجتماعي وهو ما يحكم حركة الأفراد والهيئات والتنظيمات داخل الجماعة من معايير وقيود . كذلك التربية ضرورية لتحقيق الوجود الحضاري بنقل التراث الحضاري و التطبيع الاجتماعي وتحقيق التنمية السياسية .

فيما يتعلق بمنهجية البحث في أصول التربية الإسلامية شدد المؤلف على ضرورة تحلي الباحث في أصول التربية الإسلامية بجملة من الشروط منها:
1-أن يصدر في بحثه من التصور الإسلامي لله والكون والإنسان والمجتمع
2-الالتزام بمنظومة القيم الأخلاقية التي أكد عليها الإسلام في الكتاب والسنة .
3-الالتزام بأن يكون البحث خطوة على الطريق في اتجاه مقاصد الشريعة .

المقومات الأساسية للعقيدة الإسلامية

حصرها المؤلف في الله سبحانه وتعالى والكون والإنسان والمجتمع والمعرفة مركزاً على التوحيد .
باعتباره قضية تربوية ، مدللاً على ذلك بأن التوحيد يحرر من كل عبودية عدا لله سبحانه وتعالى ويعين على تكوين الشخصية المتزنة ويملأ النفس أمناً وطمأنينة ويمنحها قوة نفسية هائلة ، وأن التوحيد أساس لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية. وقد أشار المؤلف في ذات السياق إلى الدلالات التربوية لعالمي الغيب والشهادة وما يستفاد منهما في تعزيز قيم المراقبة والاستقامة والصبر و المجاهدة في سبيل ترسيخ بعض المفاهيم التربوية مثل تربية الإنسان على الارتباط الدائم بالله والخضوع له والعمل الجاد لمعرفة ما سخر الله له وما خلق من النعم وكيفية الاستفادة منها ، والتربية على البحث عن أسرار الله وحكمته في كل مخلوقاته . كما نوه إلى أن الإنسان هو محور العمل التربوي وركيزته الأساس ، وهو ما أكده الإسلام بتكوينه الجامع " فطرة الله التي فطر الناس عليها" وتقويمه الروحي المادي الذي سواه عليه وبعبارة أخرى التصميم الإلهي المتمثل في قوله تعالى:" لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"(1) للقيام بمهمة الخلافة التي تتحقق بجملة التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد وما يحكمهم من قواعد وقوانين وأعراف ونظم باعتبار أن المجتمع بالنسبة للتربية مصدر أساس من حيث الثقافة والخصائص والإشكاليات والأهداف والعلاقات .

التأسيس القرآني للتربية

وهنا يشير المؤلف أن الأصل الأساس للتربية هو القرآن الكريم باعتباره دستور بناء الإنسان وهو واجب الاتباع ومتضمن لخلاصة التعاليم الإلهية ، ومؤيداً ومصدقاً لما جاء في الكتب السابقة ومهيمناً عليها . وقد أجاب المؤلف عن تساؤل مهم مفاده ما وجه الحاجة إلى دراسة القرآن في التربية الإسلامية ؟ منوهاً إلى أهمية القرآن من جوانب مختلفة ومتعددة تشريعياً وعقدياً وفلسفياً وأخلاقياً وثقافياً ولغوياً . وعن عن الأبعاد التربوية في القرآن الكريم أشار المؤلف إلى جملة من القضايا التربوية مثل النهج العقلي، إنسانية التوجه التربوي ، السياج الخلقي و أساليب التعليم والتعلم التي تجعل الإنسان في حالة وسط بين الخوف والرجاء وما يمكن أن يتحقق من ذلك من تهذيب للسلوك وإيقاظ للعقل وإصلاح للمجتمع وتحرير لدور المرأة وتربية الوعي التاريخي .

الحجية التربوية للسنة النبوية

وفيه تحدث الكاتب عن مهمة الرسول ﷺ والتي تتمثل في التوجيه والإرشاد والتبليغ و تعليم الكتاب وبيان معانيه ومقاصد نصوصه وكيفية تطبيق أحكامه وتعليم الحكمة والتزكية ، كما أشار الكاتب إلى خيرية الأمة الإسلامية وعلاقة الرسالة المحمدية بالمعرفة وإمكانية توظيفها في التأسيس المعرفي للبناء الحضاري ذاكراً بعضاً من الصفات والشمائل التي تحلى بها الرسول الكريم ﷺ مثل الحكمة وقوة الصبر ورحابة الصدر واستخدام أساليب الجدل وإقامة الحجة والبرهان و الاختيار ، إذ لا إكراه في الدعوة لدين الله سبحانه وتعالى ، داعياً إلى التأسي بالمصطفى (r) ، مؤكداً على ضرورة الاستفادة من السنة النبوية في البحث عن حلول لمشاكل التربية و التعليم التي تواجهها الأمة الإسلامية في العصر الحديث .

الخبرة الحضارية

في إطار حديثه عن الخبرة الحضارية والعلاقة بين الحضارة والتربية والبعد الحضاري للتربية ، يؤكد الكاتب أن الثقافة والحضارة هى ذاكرة الأمة ، وأن التربية تستمد منهما من التوجيهات ما يعزز شخصيتها وذاتيتها الحضارية ، مقارناً بين فترات سيادة حرية التفكير والبحث وازدهار المعارف والتعليم وما ينتج من ذلك من نجاح و قوة دفع وتطوير للعملية التربوية ، أو فشل في حال غياب الممارسات الدالة على حرية البحث والتفكير ، مفنداً القول بدينية حضارة الإسلام وأنها شبيهة بما كانت علية حضارة أوربا في العصور الوسطى ، معززاً أهمية الأدوار التي تلعبها المساندة السياسية والحرية الأكاديمية في الإثراء التربوي وفي التشجيع والمؤازرة في دائرة العلم والثقافة للدفع بالحركة الحضارية إلى الأمام والاستفادة من تعدد ألوان الطيف الثقافي و التنوع الفكري في إكساب الحضارة الإسلامية مزيداً من الحيوية والثراء رغم ما أصابها من مخاطر في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بسبب العقائد والمذاهب و الملل والنحل و دس الإسرائيليات وكثرة الوضع في الحديث و آثار التعدد وتناقضاته . كما أشار المؤلف إلى اختلاف مناهج الفلاسفة والمتكلمين وتباين أهدافهم وما نتج عنها من مناقشات مستفيضة أثرت حركة الإسلام الحضارية .
وفي سياق ذي صلة ، ربط المؤلف بين الإنسان كبنية جسدية ذات احتياجات متغيرة وبين الأمة الرحم الأكبر للإنسان ، وهي الأخرى لها مطالبها واحتياجاتها للذود عن الإنسان وعن حياضها ، وأن تلك المطالب والاحتياجات إنما تتأتى بالإعمار والتنمية والنشاط والرشد في الاستهلاك ، كما أن حركة الحضارة تقوم بالدرجة الأولى والأساس على المعرفة ونشرها بين الناس ، وبالتالي فهي سلعة لها تكاليفها إنتاجاً واستهلاكاً وتوزيعاً ، من أجل ذلك كله- كما يذكر المؤلف - كلف الإنسان المسلم بالسعي في الأرض والقيام بمهام الاستخلاف والإعداد لامتلاك زمام القوة مشيراً إلى فترة ازدهار الحضارة الإسلامية وما حققته من إنجاز بإعمال مبدأ الوسطية "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً"(1)وفقاً لمقاصد الشريعة الإسلامية في كل مجالات الحياة ، وتحقيقها لمصالح الأفراد والجماعات في الدارين وفق نظام يراعي مقتضيات الفطرة البشرية

وضرورات الواقع . كما تحدث المؤلف عن الترجمة وآثارها إبان ذروة عصر النهضة الإسلامية خاصة أيام بني العباس ذاكراً عدداً من العوامل التي ساهمت في ازدهار حركة الترجمة ثم أعقبها بما أسماه محاسن ومساوئ الترجمة .

الموروث التربوي

وللإجابة على سؤال ما الموروث من ناحيتي اللغة والاصطلاح ؟ يشير المؤلف إلى ملاحظة الجابرى في كتابه " التراث والحداثة- ص22" أن لاكلمة "تراث" ولا"ميراث" أو أي من مادة "ورث" قد استعمل قديماً بمعنى الموروث الثقافي والفكري ، وقد تحيز المؤلف للتعريف القائل أن الموروث أو التراث في مفهومه البسيط هو ما ورثناه عن السلف من تراكمات ثقافية أو حضارية ، وبالتالي فهو قابل للدراسة من علماء الاجتماع والتربية ، للكشف عن العلاقات العضوية بين الفكر والواقع المعاش إبن كدراسة بن خلدون في مقدمته وجهود علماء التفسير في دراسة أسباب النزول.. وقد أشار الكاتب إلى بعض الإشكاليات المتعلقة بالتعامل مع التراث من المعاصرين المتحمسين للتراث وممن يقفون على أرض مغايرة وممن ينظرون إلى التراث بأنه حقبة من التاريخ ولت ، مشيراً إلى ضرورة التحلل والتحرر من تلك الإشكاليات والتعامل مع التراث بما يفيد ويساهم في الأخذ بأسباب النهوض الحضاري .

فيما يتعلق بالمجال التربوي ، يرى الكاتب أن الموروث التربوي هو ما آل إلى المجتمع المسلم الراهن من قيم ونظم وأفكار تربوية وأخلاق وآداب ، والبحث عنه إنما هو بحث عن القيمة التاريخية في التنشئة والتكوين بالنسبة للشخصية الإنسانية ، ولبناء الإنسان لابد من الوعي بتراثه التربوي وعياً تحكمه جملة من المبادئ الأساسية ، منها :

1-الكف عن النظر إلى الموروث على أنه غاية بل هو وسيلة خاضعة للنقد والتمحيص و التغير وعدم الخلط بين الثوابت "القرآن والسنة" والمتغيرات "اجتهاد البشر" .

2-الموروث ليس خارج التاريخ والزمان والمكان وهو بذاته ليس حقيقة أبدية ولابد من الاعتراف بوجود خصوصيات للشعوب والمجتمعات.

3-ضرورة البعد عن التعصب والحرص على إقامة حوار مع الآخر .

وقد أشار المؤلف إلى عدد من الوظائف التربوية التى يمكن أن تقوم بها دراسة الموروث التربوى كفهم المشكلات التربوية التى واجهت الإنسان في سياق تطوره الاجتماعي ، وبعض العلم بالطرق التى واجه بها هذه المشكلات في عهود مختلفة وفي أماكن مختلفة . وغيرها .

وقد تطرق المؤلف في هذا الجزء من الدراسة إلى الأسس المنهجية للتعامل العلمي مع الموروث التربوي، مقترحاً بعض المؤشرات التي تعين على التعامل المنهجي مع الموروث التربوي مثل اصطناع المنهجية العلمية في التعامل البحثي مع الموروث التربوى بالرجوع إلى المصادر والقواعد والأسس المبثوثة في تلك المصادر ، والوعي بخضوع الفكر " ظهوراً وتطوراً " لنفس السنن الإلهية الحاكمة لنمو وتطور الكائنات الحية ، وبناءً على ذلك لابد من وضع أي فكرة تربوية في سياقها المجتمعي و الحضاري ، و إدراك أبرز الأخطاء الشائعة حول التعامل مع التراث باعتباره من الناحية الزمانية كتلة واحدة وما يترتب على ذلك من قصور في النظر إلى السياق المجتمعي لحركة الفكر التربوي ، و الالتزام بقواعد التعامل مع التراث، فلا تقديس إلا لكلام الله سبحانه وتعالى المتضمن في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة ، ومحاولة النفاذ إلى أعماق الجماعات في الماضي واختبار ميولهم ورغباتهم وآمالهم وأمانيهم والظروف التي كانت تحيط بهم .

فيما يتعلق بمعايير الانتقاء والاختيار لمضامين الموروث التربوي ، اقترح الكاتب عدداً من المعايير ، مذكراً أنها بحاجة إلى مزيد من المناقشة والمراجعة وهي :

1-إن دراسة الموروث التربوي إنما هي وسيلة لفهم الحاضر التربوي والوعي بقضاياه ومشكلاته – ومع الاعتراف بالتغير والقبول ، تظل هناك قضايا ومشكلات ملحة مثل قضية العدل التربوي التي تتجدد من زمن لآخر ، إلا أن مضمونها وكيفية تنفيذها وأشكالها هي التي تخضع لمتغيرات الزمان والمكان . وكقضية العدل التربوي ، قضية تمويل التعليم من يتحملها ؟ الطالب أم الدولة ؟ أم هي شراكة بين الاثنين ؟

2- تلمس الاقتران الكبير بين الدولة "لسان وتاريخ وثقافة" والإسلام لتحديد مجموعة الثوابت فيما لا يتعارض مع العقيدة الدينية ، إذ أن معيار التفاضل لا يقوم على العرق أو اللون ، إنما على التقوى .

3- مراعاة عدم التعارض والتناقض ما بين التراث و ما كشف عنه العلم الحديث خاصة في مجالات التربية وعلم النفس وما يمثله من ضرورة صرف الاهتمام بالحفظ والاستظهار فقط ، إلى ضرورة الاهتمام بالمناشط العملية المصاحبة للدروس المختلفة والتربية الرياضية وما تم اكتشافه مؤخراً من ضرورة الاستفادة من التقنية الحديثة في مجالات التعليم والتعلم .

مدارس الفكر التربوي الإسلامي:

انتقل المؤلف بالحديث إلى مدارس الفكر التربوي الإسلامي ، فأشار إلى اختلافها في العدد والأسماء باختلاف أسباب التصنيف "الجغرافيا ، العهود و النظر للقرآن الكريم " وقد صنفها وفق منهجية النظر والتفكير والبحث كالتالي :

1-المدرسة الفقهية

تتمثل القيمة التربوية للجهد الفقهي في أن حركة التعليم عندما بدأت بعد بعثة النبي كانت لحمتها وسداها القرآن الكريم ، فظهرت علوم و دراسات دارت حول الفقه فهماً وشرحاً واستنباطاً وبياناً . ولأن الفقه دائر حول استنباط الأحكام من القرآن والسنة ، لذلك كان العلماء الفقهاء أبرز فئات الفكر الإسلامي إسهاماً في التعليم . وقد حمل الفقه الإسلامي عدداً من المبادئ شكلت دعماً وترسيخاً لتربية إسلامية سوية ، منها :

1- مبدأ التخاطب مع العقل الذي هو مناط التكليف .
2- مبدأ إحاطة العقيدة بالأخلاق الفاضلة المهذبة للنفس .
1- مبدأ جعل التكاليف الشرعية لإصلاح الروح وتطهيرها وليس لإرهاق البدن وتسخيره
2- مبدأ التآخي بين الدين والدنيا في التشريع .
3- مبادئ المساواة والعدالة والتسامح والشورى .
4- مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "دستور الإصلاح الاجتماعي" .
5- مبادئ الحرية و التكافل الاجتماعي .

وقد أشار المؤلف إلى عدد من كتابات الفقهاء في مجالات تربوية متخصصة مثل كتاب محمد بن سحنون "آداب المعلمين" وأبى الحسن علي بن محمد خلف المعروف بالقابسي "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين" وأبي عمر يوسف بن عبد الله محمد عبد البر القرطبي "جامع بيان العلم وفضله" وعبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي "أدب الإملاء والاستملاء" وبرهان الإسلام الزرنوجي "تعليم المتعلم طريق التعلم" وبدر الدين بن جماعة الحموي الشافعي "تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم" وقد حقق الكتاب الأخير محمد هاشم الندوي وطبعته دائرة المعارف الهندية سنة 1354هـ وكتاب "تحرير المقال" لابن حجر الهيثمي وكتاب "المعيد في أدب المفيد والمستفيد" للعلموي .

2-المدرسة الكلامية :

وفيها يقول المؤلف بأن أهل الكلام كانوا نظريين اهتموا بالمسائل الفكرية الفلسفية وهي ما يلتقي مع التربية في وجهها الفلسفي فيما يعرف بفلسفة التربية والتي تعنى بمناقشة المفاهيم والتصورات المتعلقة بطبيعة الإنسان والمعرفة والقيم وما يتصل بها جميعاً من قضايا. ثم أورد المؤلف الأسباب "داخلية وخارجية" التي ساعدت في نشأة المدرسة الكلامية فذكر منها :

1-التغير والتبدل لحال الجماعة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ عليه وسلم عنها على حالها في عهده .
2-التعامل مع القرآن الكريم "فهمه قديماً ، أو محدثاً ، المحكم والمتشابه ... الخ" .
3-دخول أصحاب الديانات المختلفة في الإسلام "يهودية ، نصرانية ، ما ندية، زرادتشية وبراهمة...الخ ".
4-الظروف السياسية "واقعتا الجمل وصفين وقضية ارتكاب الكبيرة" .
5-الجو العلمي والمناخ الثقافي العام الذي مثل له بنشأة المدارس النحوية "علم الصرف".

3- المدرسة الفلسفية :

وفيها أشار المؤلف إلى حال المسلمين في حياة المصطفى وتنزل القرآن عليه ثم ما حدث بعد ذلك من احتكاك للمسلمين بثقافة غيرهم وما نتج عن ذلك الاحتكاك ودور التراكم الحضاري في الاستفادة من جهود السابقين في مجال التطور الحضاري .

وقد أشار الكاتب إلى المآزق التي لاقاها الفلاسفة بسبب استعداء السلطة عليهم ، ثم تحدث عن الفلسفة الإسلامية في اهتمامها بالمسائل الفلسفية الكبرى مثل نظرية الوجود ونظرية المعرفة ونظرية الفضيلة والسعادة والطبيعة والرياضة والمتيافيزيقا والأخلاق .. الخ ممثلاً بكتاب الشفاء لاشتماله على المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلهيات ، كما أشار المؤلف إلى رفع الفلسفة للواء العقل على يد ابن رشد باعتماده على البرهان ونقد طريق التصوف وفتح الطريق أمام الفلسفة والتفلسف ونقد الطريق الكلامي الجدلي .

4- المدرسة الصوفية :

ثمة ميل – كما يقول المؤلف – إلى إنكار صلاحية التصوف بأن يكون أحد مصادر التربية الإسلامية بسبب الحملات العنيفة التي شنها الفقهاء والعقلانيون على أصحاب التصوف ، مشيراً إلى أن الحقيقة عند الصوفية هي المعنى الباطن وراء الشريعة ، وبالتالي هم مخالفون للفقهاء في طريقة فهم الشرع ومناهج تفسيره والنظر إلى ماهية الأحكام الشرعية وطريقة تعليلها .

ولعل المشكلة التربوية التي لا بد للتصوف من مواجهتها – كما يشير المؤلف هي التحلي في ظاهر القول بكثير من أوامر الله وأحكامه دون انضباط حقيقي وجوهري بها ودون إخلاص .. ولعل الأصعب هو تطويع الباطن لما قد يتحلى به الظاهر .. والتزكية كما يقول المؤلف هي ضرورية لحل الإشكاليات التي تتجلى في معنى الجهاد الأكبر .. ثم أجمل المؤلف بعد ذلك عدداً من المبادئ والقواعد الأساسية للتصوف والتي يمكن أن تشكل إمكانيات تربوية تفيد التربية الإسلامية ومنها :

1- النهوض بالأعباء من واقع المسؤولية دون التعلل بتقصير الآخرين .
2- جمع الهمة وتوحيد النفس واتساق رغباتها وتركيز العزيمة وإصرارها للوصول للهدف رغم العقبات والتضحيات .
3- ضرورة تطبيق العمل على العلم .
4- ضرورة اجتماع الثالوث " لسان صادق – وقلب راض وبدن صابر" .
5- التكافل الاجتماعي وتنمية علاقات المودة والإخاء والتفاني في الفداء والإيثار .
6- ثبات الشخصية وعدم تزعزعها مهما تعاظمت الكوارث والنوائب والمحن .
7- مجافاة أسباب الفرقة والخلاف والتركيز على الإصلاح الداخلي .
8- ضرورة التخلص من الدعاوى والتصنع والمداهنة .

9- استعمال الوقت واستغلاله فيما هو أولى وأحق .
اختتم المؤلف هذا الفصل بمناقشة جملة من القضايا مثل قضية قيمة المعرفة التربوية ، فتعرض لاعتماد العرب في قديم الزمان على المحاكاة والتقليد والعادات وما ينصح به الشعراء والحكماء والزعماء في تعليم أبنائهم ، ثم انتقل إلى ما أولاه القرآن الكريم والسنة النبوية من ضرورة الاهتمام بالتعليم ، ثم تحدث عن نظام تمويل التعليم و أهمية الاستفادة من تجربة الحضارة الإسلامية في نظام الوقف في تمويل التعليم بعناصره المختلفة وشدد على ضرورة الحرية لتربية الإنسان والعدل التربوي الذي ينصرف إليه مصطلح "تكافؤ الفرص" بأن ينال كل طالب حقه في التعليم بلا تمييز .. ويمكن أن يكون كذلك -كما يرى المؤلف "ديمقراطية التعليم" وقد أكد المؤلف أن دعوة الإسلام إلى إقامة العدل بين الناس وتحكيم قاعدة المساواة تمثل بنية أساسية للعدل التربوي . وللتدليل على البعد النفعي للعلم والمعرفة "علم ينتفع به" والتعوذ من "علم لا ينفع" ودلالات مفهوم الاستخلاف وعمارة الأرض ربط المؤلف بين التعليم والعمل، وقد عزز ذلك بما بينه الشاطبي في الموافقات بقوله " كل مسألة لا ينبني عليها عمل ، فالخوض فيها خوض فيما لا يدل على استحسانه دليل شرعي وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعي " "صفحة 294" .

مشكلات الحاضر وطموحات المستقبل

في آخر فصول الكتاب تحدث المؤلف عن علاقة الأبعاد الزمانية الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل بالعملية التعليمية و تداخل مشاكل الواقع ومعطياته في صور التفكير التربوي مستطلعاً مجموعة من التحديات والمشكلات والأزمات التي تواجهها الأمة والتي تؤثر في مستقبلها فأجملها في :

1- التخلف الحضاري العام .
2- الوقوع في براثن الهيمنة الأجنبية .
3- الهوية المفقودة .
4- الخلل في ترتيب الأولويات .
5- الماضوية .
6- الخطاب الإسلامي .
7- التشدد والغلو في الدين .
8- التخلف العلمي التقني .
9- الإسفين الإسرائيلي في جسم الأمة .

بعد حصره لمشكلات الحاضر وطموحات المستقبل انتقل الكاتب إلى تعداد انعكاسات تلك المشاكل على النظام التعليمي أو "البنية التربوية" متخذاً بعض أدوات تشخيصية في تحديد تلك الأصداء والانعكاسات .
منتهياً إلى إمكانية إحداث التغيير و تبديد تلك الصورة القائمة إعمالاً للسنة الإلهية﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[2].
بامتلاك عناصر القوة تزكية وتربية وانتهاج الخطوات التالية - بعد تناسق وتناغم مختلف المؤسسات المجتمعية :

1-التأسيس الإسلامي للعلوم التربوية .
2-إشاعة العدل التعليمي بين أفراد المجتمع .
3-تنمية التفكير .
4-التوجيه الإعماري للتعليم .

وأخيراً فإن ما تقدم استعراض موجز لأهم ملامح كتاب أصول التربية الإسلامية للأستاذ الدكتور سعيد إسماعيل علي وهو خبير في مجال العلوم التربوية خاصة فيما يتعلق منها بالفلسفة . وإن كان من تعليق يقال ، فإن الكتاب تعرض لقضايا شتى وفي مجالات تربوية مختلفة تعج بالمعضلات ، وهو بذلك ينضم للكثيرين من دعاة الإصلاح والتغيير وتبقى محاولات التطبيق والنفاذ إلى تحديد الأدواء هي المحك الذي ينتظر المهتمين بقضايا تأصيل العمل التربوي الولوج فيهما لتحقيق آمال الأمة في النهضة والشهود على الأمم الأخرى . وبذلك يمكن أن يقال أن الكتاب يعتبر إضافة حقيقية في مجال التربية وقد اشتمل على خليط وهجين من القضايا والإشارات التربوية ، ويرى المؤلف أن كتابه يعتبر زاوية رؤية أو وجهة نظر تفتح باباً للآخرين للبحث والنقاش والتداول حولها ، إلا أن هناك بعض الملاحظات يجب ذكرها ، ومنها :-

- ابتدار الكتاب بالبنية المفاهيمية فيه اتسام بالجدة والموضوعية باعتبار أن المفاهيم هي مفاتيح الولوج لكل القضايا خاصة من النواحي المنهجية .
- استخدم الكاتب لفظ الجماعة والأوفق التركيز على المجتمع بما فيه من فلسفة وقيم .
- خلط الكاتب بين التربية والتعليم وأغفل مؤسسات التربية ووسائطها وكذلك اختزل أهداف التربية وميادينها .
- في الفصل الذي أسماه المقومات الأساسية للعقيدة الإسلامية ثمة إيحاء على أن محتواه ومضمونه يتعلق بالدراسات الإسلامية وليس التربوية ولعل الأوفق أن يرتبط الفصل بفلسفة التربية الإسلامية باعتبار أن الفلسفة مرتكز أساس لأصول التربية الإسلامية .
- لعله من الأوفق كذلك في كتاب يحمل عنوان أصول التربية الإسلامية تحديد مفهوم الأصول الإسلامية للتربية وأصول التربية الإسلامية خاصة عند الحديث عن منهجية البحث في أصول التربية الإسلامية وكان كذلك من الضرورة

بمكان تضمين وتوضيح الحاجة إلى فلسفة تربوية إسلامية وفكر تربوي إسلامي وذلك لمكانة فلسفة التربية في العملية التربوية ولجملة من الأسباب منها :

1- اضطراب مفهوم فلسفة التربية في الدراسات التربوية المعاصرة .
2- التطلع إلى فلسفة تربوية جديدة .
3- حاجة النظم والدراسات التربوية القائمة في العالم العربي والإسلامي إلى فلسفة إسلامية محددة